فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كليانتس

١ — ﴿ حياته ﴾ : ولد كليانتس سنة ٣٣١ ق م في مدينة « اسوس » وكان قبل اشتغاله بالفلسفة مصارعاً . ويقال انهُ حينما قدم الى أثينا لم يكن يملك من المال إلاَّ أربع دراخمات . ولكن شدة الفقر لم تكن لتصرف ذلك المصارع عن طلب المعرفة والانكباب على الفلسفة . كتب « أوجيرو » عنه : « اتفقت جميع الروايات على ان « كليانتس » امتاز بصفات الهمة العالية والارادة التي لا تقهر والثبات والمثابرة التي لا تكل . فلم يحل بطء عقله ولا شدة فقره دون مثابرته الدرس وتحصيله العلم [1] . ولما بدا « لكليانتس » ان يحضر دروس « زينون » لم يكن يملك من المال شيئاً ، فاضطر أن يقضي ساعات الليل في أشق الاعمال لكي يكسب مايدفع به رسوم التعليم : يروى عنهُ انهُ كان يحمل الماء لسقاية بعض الحدائق وكان يعجن الخبز عند احدى الخبازات . وسواء أصحت تلك الرواية أم لم تصح فهي تدل على مقدار حبه للفلسفة . ولقد أعجب « زينون » بفضائل « كليانتس » وجده في العمل ، فعهد اليه عند وفاته بأن يخلفه في ادارة المدرسة الرواقية . وبقي « كليانتس » مشرفاً على شؤون المدرسة مدة طويلة تمتد من سنة ٢٦٤ حتى سنة ٢٣٢ قبل الميلاد

لكن نفوذ الرواقية أخذ يضعف في عهده . واشتدت على المذهب هجمات الابيقوريين وأنصار الاكاديمية الجديدة . على ان « كليانتس » لم يكن له من اللباقة والمهارة في الجدل ما يمكنه من الخام الخصوم ، بل يظهر ان تفكيره كان بطيئاً وحجته غير بارعة مما جر عليه سخرية المتشككين . وكانوا يطلقون عليه اسم « الحمار » . ولكنه لم يكن يغضب لذلك

(1) Ogereau, Essai sur le système philosophique des Stoiciens, Paris, 1885, p. 18

المزاح الثقيل ، بل كان يرد قائلاً انه وحده أقدر على حمل برذعة « زينون »[١]

٢ — في تعليمه ومصنفاته : تعوزنا المصادر لمعرفة نوع التعليم الذي كان يقوم به « كليانتس » . يقول « أوجرو » : « يميل الانسان الى الظن بأن كليانتس أنفق قصارى جهده في ربط أجزاء المذهب بعضها ببعض وفي ترتيبها وتنسيقها في وحدة لا تنفصم عراها »[٢]

ألف كليانتس نحو خمسين كتاباً : كتب شروحاً على طبيعيات « زينون » « وقليطس » ومصنفات عديدة في المنطق والاخلاق . ومن مؤلفاته التي ذكرها « ديوجانس اللايرسي » ما يلي :

رسالة « في المعرفة » ورسالة « في الجدل » ورسالة « في المنطق » ورسالة « في الزمان » ورسالة « في الرد على ارستارخوس » ورسالة « في الآلهة » ورسالة « في الحرية » ورسالة « في الواجب » ورسالة « في الفضائل » ورسالة « في القوانين » ورسالة في « الغاية » ورسالة « في السلوك »[٣]

ولم يبق من مصنفات « كليانتس » إلا مقتطفات صغيرة . ومن أهمها قصيدة رائعة وهي « الانشودة الى زيوس » التي ألفها مناجياً الاله « زيوس » رب اليونان . ولم يبق من تلك القصيدة غير أربعين بيتاً جاء فيها :

« يا زيوس يا أجل الخالدين ويا من يذكره الناس بشتى الاسماء والصفات

« يا مدبر الوجود كله ويا حاكم الاشياء جميعاً وفقاً لناموسك وسلطتك

« سلام عليك

« خليق ببني البشر الفانين أن يرتلوا وجوههم نحوك منادين

« فبين الخلائق التي تعيش وتسعى على الارض إياهم وحدهم وهبت صورة منك وجعلتهم على مثالك

« وهذا العالم الذي يتحرك حول الارض حركة دائرية انما يخضع لكلمتك ويُذعن بإرادته لسلطانك . وجميع صنع الطبيعة يحدث كوميض البرق

« وبهذه السرعة توجه أنت « العقل الكلي » الذي ينساب في ثنايا الكون ممتزجاً بصغير الاشياء وكبيرها

---

(١) Diogène Laerce, Vie des Philosophes, VII, 170

(٢) Diogène Laerce, VII, 174-175. (٣) Ogereau, Essai... p. 19

« من دونك لا شيء يحدث في الارض ولا في البحر ولا في السماء
« ما عدا أفعال الاشرار ، وسببها جهلهم وقلة ادراكهم
« أنت لا يعزب عن علمك شيء : تؤلف ما افترق وتنظم ما تنافر وتكيّف الخيرات على قدر الشرور ، وتعطي كل شيء بحساب
« وانما العالم عقل واحد شامل خالد . فما أشقى الاشرار إذ تراهم عنهُ معرضين مدبرين. انهم يرغبون في الخير دائماً . ولكنهم لا يعرفون سنة الله التي لو اتبعوها لأصابوا في الحياة حكمة وشرفاً »(١)

***

ولقد عمد الفيلسوف في أنشودته هذه الى تقاليد الشعر الوجداني على نحو ما كان معهوداً عند الفلاسفة السابقين لعصر سقراط . وفي هذه القصيدة لخص كليانتس أهم مبادىء الطبيعة والاخلاق في الفلسفة الرواقية . يقول « الفرد كروازيه » في وصف الانشودة :

« قطعة جميلة ولكن جمالها أخلاقي وعلمي . وفي هذه الابيات لخص كليانتس — في دقة وقوة وبنغمة دينية نبيلة — الطبيعيات والاخلاقيات في المذهب الرواقي . وفارض هذا الشعر صانع ماهر ذو اقتناع بما يقول قبل أن يكون شاعراً كبيراً

(وفي هذه الانشودة) نجد فن البنولوجيا التقليدية موضوعاً ، كعادة الرواقيين ، في خدمة النظريات الجديدة . وفيها امتزجت اصطلاحات الدرسة في مهارة ورشاقة بالأوصاف الهوميرية (٢)

ولعلّ جمال هذه الانشودة هو الذي دعا ديوجانس اللايرسي الى أن يصف مؤلفات « كليانتس » بلفظ « كالسّتا » للدلالة على حسنها وبهائها . ولعلّ هذا ما دعا شيشرون الى أن يسمي كليانتس باسم « الرواقي الاصيل » (٣)

---

(١) Stobée Ecologae, I. 1. 12, Arnim, Stoic verter fragm, I 537
انظر الترجمة الفرنسية للانشودة في كتاب عنوانه :
Aristote, Cléanthe, Proclus, Hymnes Philosophiques, re nouvelle avec avant-propos, prolegomènes et notes par Mario Meunier, 1935

(٢) Alfred Croiset, Histoire de la littérature grecque, t. V, p. 59

(٣) Diogen. Laertius, II. 11, 126

على ان أنشودة «كليانتس» هذه نموذج من النماذج الاولى لطريقة الرواقيين في تأويل الاقاصيص . وهي تشير الى أن الانسان يستطيع بالمناجاة والدعاء أن يتصل بالآلهة وأن يسام معهم في العالم الاعلى

فالأنشودة، كما قال الأستاذ «ريشو» ربما كانت من بين مخلفات الادب اليوناني كله، أقرب الاشياء الى صلاة من الصلوات المسيحية . وتلك ظاهرة تفردت بها الفلسفة الرواقية — وليست بالأمر اليسير — وهي أن تلك الفلسفة التي طالما اعتبرها الكتاب مثلاً من أمثلة مذهب وحدة الوجود (الپانتيزم) الطبيعي، استطاعت مع ذلك أن توطد بين الآلهة والناس ذلك الاتصال الشخصي الذي يبيح العبادة والصلاة والتقوى الواثقة (١)

لكن هذه النغمة التي تفيض حماسة وتديناً كان لها أحياناً — لسوء الحظ — عواقب وخيمة منافية لروح الفلسفة الصحيحة : فقد روي عن «كليانتس» ما يفيد كثيراً من التعصب للرأي وميلاً الى الترهات والأباطيل . ذلك ان «ارستارخوس» الساموسي — وهو فلكي يوناني وعبقري من أهل القرن الثالث قبل الميلاد — كان أول من تنبه الى أن الارض تدور حول محورها وحول الشمس ، فلما أعلن ذلك العالم تلك النظرية قام «كليانتس» متهماً اياه أمام الاثينيين باقلاق راحة الآلهة وبالمروق من الدين لمحاولته « ان يزحزح هستيا — موطن الكون — من مكانها ! » (٢)

***

ولسنا ندري الى أي حد نجح «كليانتس» في اثارة خواطر العامة على «ارستارخوس» ولكن النظرية « الهليوسنطرية » التي تجعل من الشمس (٣) مركز الكون قد تلقت ضربة وأدتها في مهدها ، نتيجة مثل ذلك التعصب الذميم الذي سنرى آثاره بعد ذلك بقرون في موقف الكنيسة من العالم الطلياني « غاليلي »

---

(١) A. Rivaud, Les grands courants de la pensée antique p 174

ونظم «كليانتس» كذلك قصيدة شهيرة في الاذهان لقدر ، وثبت لنا منها أبيات ذكرها «ابكتيتوس» الرواقي في دروسه (Epictète, Manuel, 53) قال كليانتس فيها : « فدني يا زيوس وأنت أيها القدر أينما رسمتما لي الطريق ، فأنا مطيعكما دون تخلف ، لاني لو قاومت كنت من الآثمين ، ولم أكن مع ذلك أقل متابعة لكما . ولقد ترجم «سنكا» أبيات كليانتس هذه الى اللغة اللاتينية Sénèque Lettres, 107, 10.

(٢) Plutarque, de lun., 6, 3 (cité par V. Arnold, Roman Stoicism, p. 179)
Benn, History of Ancient Philosophy, p. 120-121 (3)